فلُوسُ العِيدِ

بقلم

أحمد عبد السلام البقالي

دَخَلَتْ ربيعَةُ عَلَى طفلَتِها الصَّغيرةِ مَرْيَمَ فشَهقَتْ، وضَرَبَتْ على صَدْرِها:

– وَيْلي! وَيْلي! مَاذَا تَفْعَلينَ؟

ورَفَعَتْ مَريمُ التي كَانَتْ لا تَتَجَاوزُ سِنَّ الرَّابعَةِ، رَأْسَهَا لتَنْظُرَ إِلَى أُمِّهَا بعَيْنَيْهَا الوَاسعَتَين البَريئتَين متوقِّعَةً، شَرًّا.

وَانْحَنَتِ الأمُّ تَلْتَقطُ الأوراقَ المَاليةَ الخَضْراءَ المُبعْثَرَةَ على الأرضِ، والمَائدَة، وتُلْقي بالأسْئلَةِ الغَاضبَةِ:

– كَيْفَ عَثَرتِ على المفْتَاحِ! وكَيفَ فتَحْتِ صُنْدُوقَ أبيك؟ سَيَقْتلُنا أبُوك ضربًا إِذَا ضَاعَتْ ورقَةٌ واحدةٌ!

ولَم تَزدْ مَريمُ عَلَى أنْ أخْرجَتْ لسَانَها ودَلَّتْه بشدَّةٍ نحوَ ذقنها غيرَ دَاريَةٍ ماذَا سيَكونُ عِقَابُهَا.

وعَدَّتِ الأمُّ الأوراقَ فَوجدتْهَا خَمسةً، وتَنهَّدتْ مُرتَاحةً لعدَمِ ضَياعِ إِحْدَاهَا. وبَعْدَ أنْ رَتَّبتْها في رِزْمةٍ واحدةٍ نَظَرت إِلَيْها بإِمْعانٍ لتَصيحَ في مَريمَ مرةً أخْرى:

– مَاذَا فَعلْتِ بفُلوسِ أبيك!؟

وخَبَّأتْ مَريمُ القَلَمَ الأحمرَ الذي كانتْ قَد عَثَرتْ علَيْه وسَطَ حديقةِ الجيرَان.

وتَصَفَّحَتْ أُمُّها الأوراقَ واحدةً واحدةً فإذا عَلَيْها جَميعاً رُسُومُ دَوائرَ ومُرَبَّعاتٍ بقَلَمٍ أحْمَرَ.

– وَيلي! ويْلي! سَيَقْتُلُنا أبوك حينَ يرَى ما صَنَعْتَ!

وانحَنَتْ عَلَيهَا فأمْسكَتْ بيدِها الصَّغيرةِ، ونَزَعت منْها القَلَم الأحْمرَ وضَربتها عَلَيْهَا عِدَّة مَرَّاتٍ:

– لَماذَا فَتحتِ الصُّندوقَ؟ آه لَماذَا كَتَبْتِ علَى فُلوسِ أبيك؟ آه ألاَ يمكِنُ أنْ أغيبَ رَمشَةَ عَيْنٍ دُون أنْ تَعْمَلي مُصيبَةً!؟ آه!؟

وصَاحتِ الطفلةُ الصَّغيرةُ من الفَزعِ أكْثرَ من التَّألُّمِ للضَّرْبِ:

– لَنْ أعُود! لَنْ أعُودَ مرةً أخْرَى!

وأعادتْ الأمُّ الأوراقَ الخَمْسَةَ إلَى غِلاَفِها ووَضَعَتْهَا دَاخلَ الصُّنْدُوقِ وأقْفَلَتْه، وعَلَّقتِ المفتاحَ في عُنقِها.

* * *

كانَ مُباركٌ زَوجُ رَبيعة يعْمَلُ حَارسًا لموقفِ سياراتٍ بأحَدِ الشَّوارعِ التِّجاريَّةِ المُزْدَحمةِ بالمدينَةِ. وكَان مقْطُوعَ الرِّجْلِ اليُسْرَى، فَكَانَ أصحابُ السَّيَّاراتِ يعْطِفُونَ عليه ويُضَاعِفُونَ

لَه أُجْرةَ الحراسَةِ علَى سَبيلِ الصَّدَقَةِ. وكَانَ يَعيشُ مَعَ زَوْجَتِه رَبيعَةَ وطفْلَتِهما الصَّغيرةِ مَرْيَمَ في غُرفةٍ واحدةٍ منْ دارٍ كَبيرةٍ معَ الجيرانِ بأحدِ الدَّواويرِ المُحيطةِ بالمدينةِ.

وكانَ يحْرِصُ علَى تَوفيرِ درهَمٍ واحدٍ عَلَى الأقَلِّ كُلَّ يَوْمٍ، يَضَعُه في الصُّنْدُوقِ الخَشَبيِّ المُغَطَّى «بهَيْدُورَةٍ»(١) في أحَدِ أركَانِ الغُرفةِ. وَحينَ تَجْتَمِعُ لَهُ عشَرَةُ دَرَاهِمَ يَسْتَبْدِلُها عندَ البَقَّالِ بورَقَةٍ ويضَعُها في غلافٍ في قَعرِ الصُّندُوقِ.

وكَانَتْ مريمُ الصَّغيرةُ تَرَى وَالدَها يفْتحُ الصُّندُوقَ كُلَّ يومٍ ويضَعُ فيه الدِّرهَمَ فَتُسْرِعُ لتُطِلَّ بدَاخلِه فيُقْفِلُه بسُرعةٍ ويأْخُذُ المفتَاحَ، ممّا يُهَيِّجُ فُضُولَهَا الصِّبيانيَّ الكَبيرَ إلَى مَعْرِفَةِ مَا بدَاخلِ الصُّندُوقِ الغَامضِ...

وانطَبَعَتْ في ذَاكرَتِها الصَّغيرةِ صُورةُ أبيهَا وأمِّهَا وهُمَا يَفْتَحانِ الصُّندُوقَ ذَاتَ ليلَةٍ عَلَى ضَوءِ شَمْعَةٍ، وَهي نصفُ نَائمةٍ تنْظُرُ إليْهما دُونَ أنْ تَستَطيعَ القيامَ لمُشَاركَتِهمَا الإطْلاَلَ دَاخلَ الصُّنْدُوقِ العَجيبِ. ورَأَت أبَاهَا مُباركاً يُخْرِجُ الغلاَفَ

(١) الهيدورة: فروة الكبش.

فَيفْتَحُه ويضَعُ فيه خَمسَةَ أوْرَاقٍ خَضْرَاءَ من فئةِ الخَمسينَ درْهَماً. ورأتْ أمَّها رَبيعَةَ تُقبِّلُه سَعيدةً وتقُولُ:

– الحَمدُ للّه. ضَمِنَّا كبشَ العيد!

فَرَدَّ عليهَا وهوَ لاَ يكَادُ يُخْفي سَعادتَهُ:

– الكَبشُ وحْـدَهُ لاَيَكْفي. فـهُنَاكَ الدَّقـيقُ والزَّيتُ والسُّكَّرُ... هَذَا إذَا لمْ يرْتفعْ ثَمنُ الكبَاشِ.

– لَنْ يكونَ إلاَّ الخَيرُ، إنْ شَاءَ اللّهُ.

واقْتَرَبَ يَومُ العيد، وبدَأت كبَاشُ الجيرانِ تَظْهَرُ دَاخلَ حَوشِ الدَّارِ مَربوطَةً إلَى أبوابِ غُرفِ الجيرانِ وأمَامَها أطبَاقُ العَلَفِ، والأطْفالُ يتَفَرَّجُون عَلَيْها.

ولَمْ تَكُنْ مريمُ تُخْفي غَيرَتَها من أطْفَالِ الجيرانِ، وتَدْخُل كُلَّ لَحْظَةٍ لتَسألَ أمَّهَا:

– مَتَى سَيكُون لَنَا نَحْنُ كَبْشٌ مِثْلَهُم؟

فَتُطَوِّقُها أمُّها وتُقبِّلُها وتَقُولُ:

– قَريباً يَا عَزيزَتي...

وأفَاقَ مُباركُ صَبَاح يومِ أحدٍ، فَأيقَظَ زَوجَتَهُ:

– قُومي . . . سَنَذْهَبُ اليومَ إلَى السُّوقِ لشراءِ الكَبشِ.

* * *

كَانَ اليَومُ يومَ أحدٍ، والعَمَلُ بمَوقفِ السيَّاراتِ مُتوقِّفٌ. فأفطَروا وأخْرجُوا مَعَهُمْ طِفْلَتَهُم مَريَمَ، وذَهَبَ الثَّلاثةُ إلَى السُّوقِ، ومُباركٌ يَضَعُ غِلافَ الفلُوسِ في جَيْبِ صَدْرِه، ويُقْفِلُ عليْهَا بِزرِّ السُّتْرةِ العَسكَريةِ النُّحاسيِّ. وَرَبيعةُ تَلْتَفِتُ إلَيْه كُلَّ لَحْظَة لتَقُول:

– رُدَّ بَالك! اللصوص في السُّوقِ كثيرُونَ هَذه الأيامَ.

– لاَ تَخَافي يَا امْرَأَةُ!

ويضَعُ يَدَهُ علَى صَدْرِه ليتَأكَّدَ من وُجُودِها هُنَاك.

وعلَى بَابِ السُّوقِ اجْتَمَعَ عليه عَدَدٌ منَ الغلْمَانِ يَلْوُون الحِبالَ علَى سَواعدِهم يسْألُونَه:

– هَلْ نُعاونُك عَلَى جَرِّ الكَبشِ للدَّارِ؟

فَكَانَ يَرُدُّ بابْتسَامَةٍ أبَويَّةٍ:

– حَتَّى يُكَتبه اللَّهُ. لَم نَقُلْ باسْمِ اللَّه بَعْدُ...

وحينَ تَكَاثَرُوا عَلَيه جَاءَ شابٌّ يَلْبَسُ قَلَنْسُوةَ صوفٍ زَرقاءَ

يَخْرُجُ شَعَرُه من تَحتِها في كُلِّ اتِّجاهٍ، فَتَدخَّلَ لِيُنقِذَه من الغلمان، قَائلاً:

– اذْهَبُوا! اتْركُوا الرَّجلَ وشَأنَه! ألا تَرَوْنَ أنَّهُ مَعْذُورٌ!؟

مُشيراً بذَلكَ إلَى عَرَجِه، ودَفَعَ الغِلْمانَ فَتَزَاحَمُوا حَولَه حتَّى كَادُوا يُوقِعُونَه علَى الأرضِ لَولاَ أنْ وَقَفَتْ زَوجَتُه رَبيعَةُ خَلْفَه لتُسنِدَهُ.

وَحينَ تَفَرَّقَ الغلمانُ بنَفْسِ السُّرعةِ التي اجْتَمَعُوا بهَا، وضَعَ مُبارَكُ يدَه علَى جَيْبِه فانْسَحبَ الدَّمُ من عُروقِه دَفْعَةً واحدةً فَكادَ يقَعُ مُغْمىً عَلَيْه...

ورَأتْ زَوْجَتُه شُحوبَ وَجْهِه فأدْرَكَتْ بالسَّليقَةِ مَاحَدَثَ:

– مُباركُ! مَالَكَ؟ هَل سُرِقتْ منْكَ الفُلُوسُ؟

فحَرَّكَ رأسَه بالإيجابِ غَيرَ قَادرٍ علَى الكَلامِ. فَأخَذَتْ هي تَصْرُخُ وتُولْولُ وتَلْطِمُ خَدَّيْهَا، وَالطِّفلَةُ الصَّغيرةُ مَريمُ تَنْظُرُ إلَيهَا وإلَى أبيهَا المُمْتَقعِ الوَجْهِ وَتَبكي في ذُعْرٍ شَديدٍ...

واجْتَمَعَ عَلَيْهِمُ النَّاسُ يَسألُونَهُم عَمَّا حَدَثَ، وَيَطلُبُون من مُبَارَكٍ أنْ يَتَأكَّدَ أيْنَ وضَعَ فُلُوسَهُ ولَكنَّ الشِّقَّ الحَديثَ في

أسْفلِ جَيبه منْ فعْلِ مُوسَى حلاَقةٍ حَادٌّ لَمْ يتْركِ المَجَالَ للشَّكِّ...

* * *

وشَقَّ أحدُ رجالِ الأمنِ طَريقَه إلَى دَاخلِ الحَلقةِ ليطَّلعَ علَى مَا حَدَثَ. وشَرحَتْ لَه رَبيعَةُ الوَضْعَ فَحَركَ رأسَهُ نَاعيًا علَى النَّاسِ غَبَاءَهُم وقلَّةَ احْتراسِهم علَى أموالِهم في مثْلِ هَذه الأيامِ. وقَادَهُمَا إلَى قسْمِ الشُّرطةِ حيثُ أدْخلَهُم علَى ضَابطٍ شَابٍّ، رَفَعَ لَهُ التَّحيَّة وقَالَ باقْتضَابٍ:

– سرقَةٌ أخْرى...

ونَظَرَ الضَّابطُ إليْهمَا، والمرأةُ تَحْملُ الطِّفلَةَ البَاكيةَ وتُحرِّكُها آليًا لإسكاتِهَا، وحَرَّكَ هُو الآخرُ رَأْسَهُ:

– مَاذَا سَنَفْعلُ مَعكُمْ!؟ لماذَا لاتُساعدُونَنَا قَليلاً بشَيءٍ من الحَذَرِ!؟ كيفَ سَنَعْثُر عَلَى فلُوسِكُمْ؟

وأمَرَ الشُّرْطيُّ أنْ يأخذَهُمَا إلَى أحَدِ الكَتَبَةِ ليكْتُبَ تَقريراً بذَلك. ودَخَلَ مُباركٌ إلَى المكْتبِ وجَلَسَ أمَامَ الكَاتبِ فأخَذَ هذَا يُلْقي علَيه الأسئلةَ ويكْتُبُ إجَابَاتِه علَى الآلة.

وجَلَستْ رَبيعةُ علَى كُرسيٍّ خشبيٍّ في المدْخَلِ، ومرْيمُ الصَّغيرةُ تبكي في حِجْرِهَا، وهيَ تنْتَهرُها:

– اسْكُتي! يَا طَالِعَ الشُّـــوْمِ! لولاَ أنَّكِ زَوَّقْتِ الفُلُوسَ بقَلَمِكِ لَمَا ضَاعَتْ!

وتَدخَّلَ الشُّرطيُّ الكَبيرُ السِّنِّ القَاعدُ إلَى طَاولَةٍ علَى بابِ القسْمِ:

– لاَ تلُومي الطِّفلَةَ البَريئَةَ علَى أغلاَطِكُمْ! إنَّها لاَ تَعْرِفُ شيئاً...

– مَنْ يَدْري يا سيِّدي من أيْن يأتي سُوءُ الطَّالع!؟ لمَاذَا لَم تُسرَق الفُلُوسُ من قَبْلُ، ولم تَضعْ حتَّى زَوقَتْها كُلَّها بقَلَمِها الأحْمَر!؟

وكانَ الضَّابطُ الشَّابُّ يكْتُبُ في مَكْتبِه، ويسْتمعُ إلَى حديثِ الشُّرطيِّ معَ ربيعةَ فجَذَبَ كلاَمُها انتباهَهُ، فَتوَقَّفَ عن الكتابة، وضَغَطَ الجَرسَ بقَدَمِه.

وقَام الشُّرطيُّ البَوابُ وأطَلَّ علَيه فقَال لَهُ:

– جِئ بالمَرْأة.

فَعَادَ الشُّرطي إِلَى رَبيعَةَ وأشَارَ لَها أنْ تَتْبعَه إِلىَ مَكْتَبِ رَئيسِ القسْمِ. فَوَقَفَتْ مُعْتذِرةً عنْ بُكَاءِ الطِّفلةِ لِمن حَولَها وَللشُّرطي، ودَخَلَتْ علَى الضَّابطِ الشَّابِّ، فسألَها:

– قُلْتِ إِن طفلَتَكِ هَذه كَتبتْ علَى الفُلُوسِ.

فارتَبكَتْ رَبيعَةُ قَليلاً لأنَّها كَانتْ سَمِعَتْ أنَّ الكتابَة علَى الفُلوسِ مُخَالفَةٌ للْقانُونِ فَقَالَتْ معْتذِرةً:

– إِنَّها طفْلَةٌ صغيرةٌ لاتَعْرِفُ شَيئًا. وَقَدْ وجَدَتْ قَلَمًا – فَقَاطَعَهَا الضَّابطُ:

– بأَيِّ لَوْنٍ؟

– أحْمَرُ.

فَقالَ لَها وهُو يُخْرِجُ من دُرْجِه قلَمًا أحْمَرَ:

– مثلَ هَذَا؟

– نَعَمْ.

فَمَدَّه إِلَى الصَّبيةِ قَائلاً:

– خُذِي.. مَا اسْمُكِ؟

– اسمُها مَرْيَمُ، يا سَيِّدي.

– ضَعِيهَا علَى الأرضِ. خُذِي القَلَمَ.

وتَنَاولَتْ مَرْيَمُ القَلَمَ بعْدَ تَردُّدٍ. وأخْرَجَ الضَّابطُ محْفَظَتَهُ وأخْرَجَ منْهَا خَمْسينَ درْهَمًا فَنَاوَلَهَا الطِّفلَةَ أمَامَ استغرابِ أُمِّها والشُّرطيِّ المُسِنِّ.

– خُذِي يا بنتي، اكتُبي علَى هذِه.

فحَاولَتْ الأُمُّ منْعَ مريمَ من أخذِ الورقةِ الماليَةِ، إلاَّ أنَّ الضَّابطَ قالَ بحَزْمٍ:

– دَعيهَا! دَعيهَا تكْتُبُ عليْها ما كَتبتْهُ علَى الأوراقِ المَسْرُوقَةِ. أجلِسيهَا علَى ذَلك الكُرسِي إلَى تلْك الطَّاولَةِ.

وَجَلَسَت الأمُّ والطِّفلَةُ إلَى الطَّاولَةِ ومَريَمُ تمسكُ بالقَلَمِ وتَنْظُرُ حَوَالَيْها إلَى الضَّابطِ الذي عَادَ إلَى أوراقِه وإلَى الشُّرطي الذي صَرَفَه الضَّابطُ فَوَلَّى ظَهْرَهُ خَارِجًا.

وبَعْدَ عِدَّةِ دَقَائقَ كَانَتْ رَبيعَةُ تُشَجِّعُ مَرْيَم أثناءَها علَى الكِتَابَةِ، وتُمسكُ بيَدها، وتَضَعُ رَأسَ القَلَمِ علَى الوَرَقَةِ الماليَّة، قَبلَت مَريَمُ أنْ تبدأَ في التَّخطيطِ والتَّزويقِ.

وَوَقَف الضَّابطُ حينَ سَلَّمْتهُ رَبيعَةُ الوَرَقَة، فَنَظَرَ إلَيْهَا وسَألَ:

– هَذه هي نَفْسُ الرُّسُـومِ التي وُضِـعَتْ عَلَى الأوراقِ المَسْرُوقَة؟

فَحرَكَتْ رَبيعَةُ رَأسَهَا:

– تَقْريبًا.

فَصَرَفَها برَأسِه:

– اذْهَبي الآنَ. سنَرى مَـا يمكِنُ عَـملُه. وَدَعي الطفلَةَ وشَأنَهَا.

ورَبَّتَ خدَّ مَرْيَمَ التي ابتَسَمَتْ لَهُ والْتَصَقَتْ بسَاقِ أمِّها.

وخَرَجَ مُبَارِكٌ من مكْتبِ الشَّكاوَى وغَادَرَ الثَّلاثَةُ قسمَ الشُّرطةِ في حَالٍ منَ النَّكَدِ والقَهْرِ متوجِّهَيْنِ نَحْوَ مَسكَنِهِمْ.

ولَم تكَد رَبيعَةُ تَدخُلُ الغُرفَةَ حتَّى ارتَمتْ علَى سَريرِها بَاكيةً وزَوجُهَا ينْظُرُ إلَيْهَا وإلَى مَرْيَمَ التي لَمْ تكُن تَدْري مَا يحْدُثُ.

* * *

كَانَ ضَابطُ الشُّرطَة رجُلاً نَبيلاً، طَيِّبَ القَلْب، ذَكيًا. فَبِمْجَرَّد مَا غَادَرَ مُبَارِكٌ وعَائلَتُه القسْمَ أرسَلَ في طَلَبِ أربَعَةٍ

من رجَالِه، فَأخْبَرَهُم، وعَرَضَ عَلَيْهِم الورَقَةَ المَاليةَ، وطَلَبَ منْهُم الوُقُوفَ عَلَى أبْوابِ السوقِ الأرْبَعَةِ والقبْضَ عَلَى كُلِّ مَن يَدْخُلُ أو يخرجُ منَ المشْبُوهين وأصْحَابِ السَّوابقِ، فأسْرَعوا إلَى تَنفيذِ الأمرِ.

وأرْسَلَ في طَلَبِ أربعةٍ منْ رجَال الشُّرطةِ فأرسَلَهُم لتَطْويقِ سُورِ السُّوقِ والقَبضِ عَلَى جَميعِ مَنْ يُحَاولُ القَفْزَ فَوقَهُ.

ولَم تَمض سَاعةٌ حتَّى بَدأتْ الأفْوَاجُ الأولَى منْ لُصُوصِ السوق والمتَسَكِّعينَ تَصلُ إلَى القسمِ، فيدْخُلُ كُلُّ واحدٍ منْهُمْ علَى حدَةٍ إلَى غُرفَةِ التَّحقيقِ حَيثُ يؤْمَرُ بإفْراغِ جُيُوبِه، ويُسْألُ عمَّا إذَا كَانَ يعْرفُ مَنْ سرقَ المائَتَيْن والخَمسين درهَمًا منَ الرَّجُلِ الأعَرجِ، فَكَانُوا كُلُّهُم ينْكرونَ معْرفةَ الفَاعلِ، فيرسَلُون إلَى غُرفةِ الحَجْزِ التي كَانَتْ عبارةً عَن دهْليزٍ مُظْلمٍ رَطبٍ بَاردٍ تَحْتَ الأرضِ، فيُتركُون هُنَاكَ.

وَفي نهايَةِ النَّهَارِ حينَ فَرَغَتِ السوقُ، دَخَلَ عَلَيْهِم الضَّابطُ الشَّابُّ، فَأشْعَلَ مصْباحًا عَاريًا مُعَلَّقًا في سَقْفِ الدِّهليزِ ووجَّهَ إلَيْهِم الكَلَامَ:

– سنُعطيكُم فُرصةَ الخُروجِ من هُنَا مَرَّةً أخرَى، وذَلكَ بِسؤالِكُم واحداً واحداً عَن سارقِ فلُوسِ الرَّجلِ الأعْرجِ. فإذَا لم نتوَصَّلْ إلَى معْرفَتِه فستَقْضُون جَميعًا عيدَكُم هُنَا.

وأشَارَ إلَى مُساعديه فَبدَؤوا يُخْرجُون المَقْبُوضَ عَلَيْهم واحداً واحداً ويأخُذُونَهُم لغُرفةِ التَّحقيقِ؛ حَتَّى جَاءَ دَوْرُ غلامٍ صَغيرٍ أخَذَ يرْتعِشُ من الخَوفِ فَعَرضَ الضَّابطُ عَلَيه الوَرَقةَ المَاليةَ وسألهُ:

– هَل رأيتَ وَرَقةً مثْلَ هَذه؟

فَحملقَ الغُلاَمُ فيهَا، وأضَافَ الضَّابط:

– أُنْظُرْ جَيِّداً. وَرَقَةً منْ فئةِ الخَمسةِ آلافِ سَنْتيمٍ عَلَيْهَا رسُومٌ بقَلَمٍ أحْمَرَ.

فأمْسَكَ الغُلاَمُ بهَا بيدٍ مرْتَعشَةٍ وقَالَ:

– نَعَمْ.

– عنْدَ مَنْ؟

– أخَافُ إنْ دَلَلْتُكُمْ علَيه أن ينْتقِمَ منِّي بعْدَ خُرُوجِه من الحَبْسِ.

فَوَضَعَ الضَّابطُ يدَه علَى كَتِفه وقَالَ مُطَمْئِنًا:

- لاَ تَخَفْ من هَذه النَّاحيةِ! سَوفَ نُعيدُكَ إِلَى الدِّهليزِ كَما لَو أنَّك رَفَضْتَ التَّصْريحَ لَنا باسْمِه. وسنُخْرِجُكُم جَميعًا حَتَّى لاَ يَعْرِفَ أحَدٌ مَنْ أخْبَرَنَا.

فَقالَ الغُلامُ:

- إِنَّهُ مَرْزُوقُ.

فَسألَ الضَّابط:

- مَرْزُوقُ مَنْ؟

فَرَدَّ الغُلاَمُ: لاَ أدْري. الجَميعُ يُنَاديه مَرزُوق، ويُكَنِّيهِ البَعْضُ بالمَلْعُوقِ أوْ وُلْدِ السُّوقِ.

فَردَّ الضَّابطُ:

- مَرْزُوقُ المَلْعُوقُ. مَرْزُوقٌ وَلَدُ السُّوقِ.

فَحَنَى الغُلاَمُ رأسَه:

- نَعَمْ. ولكن أرجُوكُم أن تَستُروني! فهُو شِرِّيرٌ وعنيفٌ، خُصُوصًا حينَ يشْرَبُ.

- أينَ يذْهَبُ ليَشْرَبَ؟

– إلىَ الغَابةِ علَى شاطئِ البحْرِ.

– من أينَ يشْتري الشَّرابَ؟

– من دُكَّانٍ قريب من هُنا.

– وأرسَل الضَّابطُ أحدَ رجاله إلَى الدُّكَّان فَعَادَ هَذا بَعْدَ رُبع سَاعةٍ بورقةٍ من فئة الخَمْسين درْهَمًا وعَلَيْهَا رسُومُ دَوائرَ ومُربَّعاتٍ بقَلمٍ أحْمَرَ. فَتَناوَلَ الضابطُ الورَقَةَ وقَلَّبها بَيْنَ يَدَيْه، وسَألَ الرَّجُلَ:

– ماذَا اشْتَرَى بها؟

– زُجَاجَتَيْ شَرابٍ، وأخَذَ بقيَّةَ الفُلوسِ.

وهُنَا طَلَبَ الضَّابطُ من أرْبَعَة من رجَاله التَّوجُّهَ إلَى الغَابة عَلى الشَّاطئ، دُونَ إحْدَاثِ ضَجَّةٍ، والقَبضَ عَلَى جَميعِ مَن يعْثُرون علَيهم هنَاكَ من السُّكارَى أو المتَسكِّعينَ.

* * *

وبَاتَ مُبارَكٌ وزَوجَتُه رَبيعَةُ لَيلَةً بَيْضَاءَ يقَلِّبان أمرَ محْنَتهما عَلَى جَميعِ وُجُوهه لَعَلَّهُما يَجدَان لَه حَلاًّ. وكَان ممَّا يزيدُ في حَسرتِهما رُغَاءُ الكِباشِ وسَطَ الدَّارِ، وبقَاءُ يومٍ واحد

فَقَط علَى العيدِ، الأمرُ الذي يستَحيلُ مَعَه تَدْبيرُ المال بأيَّةِ طَريقةٍ.

وأصْبَحَ الصَّبَاحُ، وخَرَجَ مُبارَك لعَمَله، وذَهَبَتْ رَبيعَةُ إلَى مَنْزِلِ أحَدِ التُّجَّارِ بالمَدينَةِ كَانَتْ تَعْمَلُ عنْدَه خَادمًا قَبلَ زَواجِها، لَعَلَّهَا تُليِّنُ قَلْبَه فيُقْرِضَها ثَمَنَ الكَبش. وتَركتْ طفْلَتها مَرْيَم مَعَ جَارةٍ صَديقةٍ لَها.

وعَادَتْ في المَسَاءِ جَائعَةً مُرهَقَةً يائسَةً خَائبة الأملِ. وعلَى بَابِ الدَّار وَجَدَت زَوْجَهَا وقَدْ عَادَ، هُوَ الآخَرُ، من عَمَله مُبكِّرًا مَغْمُومًا ضَيِّقَ الصَّدرِ، فَلَم تجرُؤْ علَى سُؤاله، ولَم يجْرُؤ علَى سُؤالِها.

واكتَفَتْ بقَولِها:

– ذَهبتُ لأرىَ دَارَ الحَاج فوجَدْتُهم سَافَرُوا لقَضاءِ العيدِ مَعَ أُمِّه.

ودَفعَتْ ربيعةُ البَابَ ليدْخُلَ زَوجُها، ودَخَلَتْ خَلْفَه، لتُفَاجأ بمَنْظرٍ عَجيب. كَانَ ضَابطُ الشُّرطةِ الشَّابُّ يُمْسكُ بطفلتِها مَريمَ ويُركِبهُا فوقَ كَبشٍ سَمينٍ أبيض الوَجْه، وهَي

تُمْسِك بصُوفِه سَعيدةٌ وتَضْحَكُ.

وَوَقَفَتْ فَاغرةً فمَها أمامَ المَشْهد! فالْتفَتَ الضَّابطُ إليها وقَالَ:

– هَذَا خَرُوفُ مَرْيَمَ. فَهي التي سَهَّلَت لَنا عَمليَّةَ القَبضِ عَلَى اللِّصِّ.

ورفَعها من خصْرِها وسَلَّمها لوَالِدَتِها، قَائلاً:

– هَذهِ فتَاةٌ سَعيدةُ الطَّالعِ!

وامتلأت أعْيُنُ رَبيعةَ ومُبارَكٍ بالدُّموعِ، وهُما يُحَاولان شُكْرَ الضَّابطِ الشَّابِّ الذي أَحَسَّ هُو الآخرُ، بعَينيه تَغْرَوْرِقَان تأثُّرًا لسَعادةِ العَائلةِ الفَقيرةِ. فَأشَارَ إلَى مُساعديه ليتْبَعُوهُ، وخَرجَ الجَميعُ تَاركين وَرَاءَهُمْ منزلاً تُرفْرِفُ علَيه السَّعادَةُ...